د. مباركة بنت البراء لـ « الأدب الإسلامي »:

المضمون الإسلامي في الأدب الموريتاني يشكل خطاباً إبداعيا سائدا

حوار: محمد شلال الحناحنة
الأردن

التجربة الأدبية لدى الشاعرة الموريتانية د. مباركة بنت البراء تجربة ذات جذور إسلامية أصيلة ، في شعرها إبداع في بناء الصورة ، وفي كتاباتها النقدية رؤى عميقة ، وتوازن ووضوح ، كذلك كان في حوارنا معها إطلالة على موريتانيا « بلد المليون الشاعر » ، وعلى الأدب الإسلامي المعاصر هناك ، وعلى قضايا أخرى أثارتها في لقاء « الأدب الإسلامي» معها.

*** لنبدأ من موريتانيا التاريخ والأدب (بلد المليون شاعر) ذات الثقافة الأصيلة .. تُرى ما أثر هذه البيئة في تجربتك الأدبية ؟ وما موقع الشعر الإسلامي في عالمك الشعري؟**

** معروف أن للبيئة دورها في تشكيل التجربة الإنسانية وخاصة التجربة الأدبية، والبيئة الموريتانية ثقافيا، هي بيئة ذات مرتكز إسلامي أصيل، قام منذ القرن العاشر الهجري على ظهور الدرس المحظري واعتماده في عالم البدو الرحل.

ويقوم منهج المحظرة على تدريس العلوم الشرعية واللغوية من قرآن وأصول وتاريخ وأدب ومنطق وبيان لمختلف المستويات من قبل شخص واحد هو الشيخ ويكون تحت شجرة أو في مكان مكشوف ، وقد سمى بعض المستشرقين المحظرة : جامعة بدوية متنقلة.

وقد شهدت موريتانيا نهضة ثقافية كبرى في القرون (١١-١٣ هـ) وكان لعلمائها دور بارز في نشر الإسلام في إفريقيا السوداء، كما أسهموا إسهاما متميزا في مجال التأليف.

وأعترف أن الوسط الثقافي الذي عشت فيه وهو وسط محظري عريق، ساهم في توجيهي وجهتي الأدبية وظل مصدرا من مصادر الاستيحاء لدي.

*** هل يمكن أن نتعرف على الحركة الأدبية بشكل عام، وعلى الأدب الإسلامي المعاصر في هذا القطر العريق؟!**

** لقد ظهرت الحركة الأدبية المعاصرة في موريتانيا بعيد الاستقلال (١٩٦٠م) ومعلوم أن لهذه

الحركة أصولا تراثية مكينة قامت على تمثل واع للثقافة العربية الإسلامية وقد أثرى هذه الحركة الانفتاح على العالم الخارجي والتفاعل مع الثقافتين العربية والأوربية، شأنها في ذلك شأن غيرها من الحركات الأدبية المعاصرة.

وقد أدى هذا الاحتكاك إلى ظهور أجناس أدبية جديدة على الساحة : كالرواية، والقصة، والمسرحية وغيرها . أما عن المضامين في هذه الإبداعات فهي متنوعة، احتل الشأن السياسي المحلي والقومي الصدارة فيها . واهتم بعضها بالقضايا الاجتماعية، ونحا بعضها منحى ذاتيا وجوديا أما المنحى الإسلامي، فقد عرف حقبتين : حقبة أولى لم يتميز فيها الشأن القومي والتبس به، وتمد هذه الفترة من ١٩٦٠ وحتى ١٩٥٠ م، وحقبة ثانية تأسس فيها خطابا مستقلا هادفا من ١٩٨٠ وحتى ١٩٩٥م .

وقبل التفصيل في مميزات هاتين الحقبتين، ألفت الانتباه تأصيلا مني لهذا المنحى في الأدب الموريتاني – إلى أن المضمون الإسلامي تشكل خطابا إبداعيا سائدا في السنوات الأولى لدخول الفرنسيين البلاد. (أواخر القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر الميلادي) وحفظت لنا كتابات هذه الفترة من رسائل، وفتاوى فقهية، وقصائد، مواجهة الموريتانيين للمستعمر وتثويرهم المجتمع ضده وتخوفهم العميق على الدين والمثل والقيم.

يقول محمد ولد الطلبة اليعقوبي : من لامية طويلة، ينافح فيها عن الدين وينتقد الأساليب البدعية في عصره :

... مصيبة دين الله أمسى عماده
كمنفوس حبلى غرقته الحوامل
تظاهر أقوام عليه فطمسوا
هداه، فهم عاد عليه وخاذل
ولم يحم دينا مستباحا حريمه
من المعتدي إلا القنا والقنابل
وفتيان صدق صابرون لربهم
يحامون عنه وهو عنهم يناضل

ويهيب " ولد الشيخ سيديا " بقومه مستصرخا إياهم لجهاد الفرنسيين :

... حماة الدين إن الدين صارا
أسيرا للصوص وللنصارى
فإن بادرتموه تداركوه
وإلا يسبق السيف البدارا...

وهنا نعود لحديثنا عن الأدب المعاصر، لنقول: إن هذا التوجه الذي شغل مساحة بارزة في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، وكان محددا في توجهاته، ظهر بشكل مغاير بعد الاستقلال حيث طغت المضامين القومية، ولم يتم التركيز على المضامين الإسلامية، وإنما تأتي الأفكار عرضا دون تعميق ملتبسة بمضامين أخرى، يقول أحمد ولد عبدالقادر في قصيدته « لغة الكتاب» مطالبا بترسيم اللغة العربية:

لغة الكتاب حبيبة القرآن
لله درّ جمالك الروحاني
حركت في ذهني دفينا كامنا
وملأت بالسحر الحلال جنابي
يا منطق القرآن يا لغة الألى
حازوا الصدارة عند كل مكان
إنا نريد ثقافة عربية
لسنا نريد ثقافة الشيطان

ويمكن القول: إن الأمثلة كثيرة في هذا الصدد، لا يتسع المقام لذكرها. غير أن فترة الثمانينات كما أسلفت، شهدت توسعا وتأصيلا للمضمون الإسلامي، وهذا ما عكسته الإبداعات المختلفة من مقالات، وشعر، وقصة قصيرة، ويمكن أن نرجع هذا التوسع لجملة من الأسباب، منها الاجتماعي، ومنها الثقافي، ومنها السياسي، فالهجرة المكثفة من الأرياف إلى المدن بسبب الجفاف، وما استتبعها من اختلال في المثل والقيم، وانحسار للثقافة المحظرية التي ظلت الدرع الواقي من أي اختراق، وشيوع الكتابات الرخيصة

والبرامج الإعلامية المتدنية، ثم استهداف المسلمين في شتى بقاع العالم، كل هذه العوامل عززت التوجه الإسلامي للأدب.

وقد اتخذ هذا الوجه منحيين:

أولا: منحى تم فيه التركيز على الذات الموريتانية وما يتهددها من استلاب ومسخ شخصية، وهو ما ظهر في قصص محمد فال ولد عبدالرحمن، ومحمد ولد تتا وفي أشعار أحمد ولد عبدالقادر "السفين" وأشعار ولد عمر "خديجة".

ثانيا : منحى اهتم بما يجري للمسلمين في كل مكان ... في أفغانستان، والشيشان، وفلسطين، وغيرها من البقاع ويبرز في جل قصائد هذه الفترة، يكون بعد الفجر ثم لنا لقاء" لمحمد الحافظ بن أحمد، أمتي" لمحمد ولد مزيد، " راجعون" لولد عمر.

*** قال أحد النقاد: (إن ديوان "ترانيم لوطن واحد" لمباركة بنت البراء تسيطر عليه فكرة الرجوع إلى الجذور التليدة، والانطلاق إلى حد الاستحالة) . كيف نوفق بين طرفي هذه المعادلة برأيك؟!**

** هذا الوصف للديوان يختلف تأويله من قارئ لآخر، ومن الصعب عليّ أن أحكم على ديوان كتبته، إلا أني بدون شك حاولت في هذا الديوان تجذير رمز محلي موريتاني (الصمغ - القتاد - الشيخ - الرمل) كما أني اجتهدت ما وسعني ذلك أن أظل وفية لتقاليد اللغة العربية من حيث المعجم والصياغة، وحاولت أن أتجاوز المألوف في بناء الصورة.

*** لك دراسات نقدية جادة . فما مدى مواكبة النقد الأدبي لحركة الإبداع وتأثيره في توجيهها.**

** تعد الدراسات النقدية حول الأدب الموريتاني قليلة جدا، مقارنة بالكم الموجود في الكتابات في القديم والحديث، فهناك مسافة واضحة بين الحركة الأدبية والحركة النقدية، وأعتقد أن دارسي الأدب لم يُكفِّروا بعد عن هذا الخطأ، حيث لا يزال جهدهم منصبا على الجمع والتحقيق - وهو جهد يذكر فيشكر - غير أن هذا الأدب في أمس الحاجة إلى كتابة نقدية جادة تواكبه، وتوجهه وتقوِّمه، وتقدمه للقراء داخل وخارج البلد .. وتحمل الرسائل الجامعية أراء نقدية مهمة ودراسة لظواهر معينة في هذا الأدب، غير أن انعدام النشر حال دون ظهورها للقراء.

*** العولمة هي إلغاء لذاكرة الأمة، واستلاب لهويتها وتراثها، ماذا ترين في هذا الطرح ؟! وما دور الأدب الإسلامي في الوقوف أمام تيار العولمة الجارف؟!**

مباركة بنت البراء في سطور

- ولدت عام ١٩٥٧م
- حصلت على الدكتوراه في الأدب الموريتاني الحديث من جامعة محمد الخامس في الرباط سنة ١٩٩٦م.
- أسست نادي الإبداع الثقافي في أنواكشوط عام ١٩٩٢م .
- مسؤولة العلاقات الخارجية للمكتب التنفيذي لرابطة الأدباء الموريتانيين.
- عضو الهيئة الإدارية للجنة الأدبيات بمكتب البلاد العربية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- أستاذة في مركز الدراسات الجامعية للطالبات بجامعة الملك سعود بالرياض.
- من كتبها :
- ديوان ترانيم لوطن واحد، وأهازيج المساء، ومدينتي والوتر .
- الشعر الموريتاني الحديث بين التأسيس والتأصيل.
- البناء المسرحي عند توفيق الحكيم.
- حكايات الجدة (مجموعة قصصية للأطفال).

** العولمة هي إلغاء لذاكرة الأمة واستلاب لتراثها وهويتها، ذلك أن التبعية الفكرية والثقافية أخطر بكثير من التبعية السياسية والاقتصادية، فهذه الأخيرة قابلة للتغير والتحول، أما في مجال الثقافة والفكر فإن الأمر مختلف، إذ هو يتعلق بصياغة الشخصية الإنسانية ذاتها بمعتقداتها وقيمها، ومن ثم فإنه يهدف إلى تأسيس لشخصية جديدة بمواصفات جديدة، يستحيل تغييرها بين لحظة وأخرى، فتصبح معالجة الشرخ الاجتماعي الذي تحدثه بالغة الصعوبة، وهذا بالطبع ما يمهد لكل ألوان التبعية الأخرى.

فالعولمة تهدف إلى توحيد العالم في إطار فكري بحت، تسعى الدول القوية من ورائه إلى إلغاء الخصوصية الثقافية للأمم، ورسم مناهجها وسياساتها التعليمية، ولخطر هذه الفكرة فإن دولة كفرنسا استثنت في اتفاقية « الجات » الجانب الثقافي حرصا منها على تقاليدها الثقافية والفكرية.

وفي هذا المناخ المادي السائد فإن التصور السليم لإسلامية الأدب، هو تحريره من التبعية والنفوذ الأجنبي. فرسالته أصبحت رسالة تحصين وتوجيه ومواجهة، لا بد فيها من التأصيل الصحيح للتجربة، وتنويعها وإثرائها بالترجمة والقراءة، ومراعاة الحاجات الفكرية والثقافية للفرد المسلم في شتى مراحله العمرية . إن هذا الأدب لا بد أن يكون عطاء فنيا منافسا ومواكبا روح العصر ومرتكزا على عطاء النفس المؤمنة ذات الوجدان الأصيل.

*** يقولون : ـ ما زال الأدب النسائي يغرد على أغصان دوحته الذاتية الخاصة بعيدا عن هموم المجتمع وآماله) . ما ردك على ذلك؟!**

** لا يكاد أدب يخلو من صبغة ذاتية تنم عن هوية منتجه، والأدب النسوي حديث النشأة، لم يشتد عوده بعد، وقد شكك عديدون في قيمته ومستواه الفني، ومنهم من عده من إنتاج الطبقات المهمشة، غير أن كل هذا يجب ألا يؤثر على رؤيتنا الموضوعية له، بل يفترض أن يحفز على الإمساك به وتشجيعه حتى يقف على أرض صلبة، أما عن تقوقعه على الذات وعزوفه عن قضايا المجتمع، فلا أرى أنه رأي سليم، ذلك أن المرأة نواة للمجتمع وجزء منه، وحديثها عن ذاتها، آلامها، معاناتها، طموحاتها، يكشف ناحية مهمة في حياة المجتمع، وطورا من أطواره فتحسس الذات مظهر صحي، وإسماع الصوت تعبير عن الوجود وسعي للمشاركة، فعلينا أن نفهم هذا ونقدره.

*** يعاني أدب الطفل في عالمنا الإسلامي تعثرا واضحا مقارنة بأدب الكبار . ما أسباب هذا التعثر ؟ وكيف ننهض به ؟!**

** أدب الطفل في ساحتنا الثقافية لا يزال غائبا بالمعنى الصحيح . طبعا هناك كتابات للأطفال، هناك بعض المجلات المتخصصة، ولكن هذا لا يكفي، فالطفل اليوم مشدود إلى الفضائيات وأفلام الفيديو، وسَوْرة العنف والانحراف السائدة، وهذا ما يتطلب وضع أساس تربوي ثقافي فكري لكل الإنتاج الموجه لأطفالنا، وهو ما يستوجب كذلك تنسيقا بين المربين والكتاب وعلماء النفس لتوجيه الخطاب المقدم للطفل، ولتغطية عالمه الواقعي والخيالي فلا بد من إبداع لغة تخاطب جديدة، وبرامج جديدة مسموعة ومرئية تكفل تنمية قدرات الطفل، وتسهم في تفتيح مواهبه، وتنشئ لديه حصانة ذاتية ضد أي فكر دخيل، لنضمن أجيالا سوية.

*** أنت عضو في رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ سنوات . ماذا قدمت هذه الرابطة للأديبة المسلمة ؟ وما طموحك أن تقدمي لها في المستقبل؟!**

** لقد قامت رابطة الأدب الإسلامي بالعديد من النشاطات لدعم الأديبة الإسلامية، فقد أقامت الرابطة أول مؤتمر للأديبة الإسلامية في آب/أغسطس ١٩٩٩م. وقدم هذا المؤتمر أوراقا عديدة حول نتاج الأديبات، والرابطة تهيئ لمؤتمر قريب مماثل في مكة المكرمة.

وإضافة إلى ما سبق فهناك اهتمام بنشر إبداعات الأديبة المسلمة، واهتمام كذلك بقراءة هذه الإبداعات . ونحن نطمح دوما للمزيد ونرجو أن يوفق الله القائمين على هذه الرابطة ويمكنهم من تحقيق الأهداف التي خططوا لها. ■